الفصل العاشر

صَاحِبُ الثِّيَابِ الرَّثَّةِ

غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَوَقَّفَ ضَجِيجُ الْحَشَرَاتِ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَوَسْطَ هَذَا السُّكُونِ، انْطَلَقَتْ فَجْأَةً أَصْوَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ. تَوَقَّفَ هنري وَأَرْهَفَ السَّمْعَ. أَتَى صَوْتُ صِيَاحٍ مِنْ بَعِيدٍ، وَسَمِعَ هنري الصَّوْتَ الْمُدَوِّيَ لِإِطْلَاقِ النَّارِ وَانْطِلَاقِ الْمَدَافِعِ.

تَشَتَّتَ ذِهْنُ هنري فِي كُلِّ الاتِّجَاهَاتِ. تَخَيَّلَ أَنَّ الْجَيْشَيْنِ لَا يَزَالَانِ يُحَارِبُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. وَبَعْدَ أَنْ أرهف السَّمْعَ وَقْتًا طَوِيلًا، بَدَأَ يَجْرِي فِي اتِّجَاهِ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. عَلِمَ هنري أَنَّهُ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ يَرْكُضَ بِاتِّجَاهِ الْمَعْرَكَةِ وَهُوَ الَّذِي بَذَلَ جُهْدًا بَالِغًا لِيَبْتَعِدَ عَنْهَا، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ وَالْقَمَرُ عَلَى وَشْكِ الاصْطِدَامِ، فَسَيَصْعَدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَسْطُحِ مَنَازِلِهِم لِيُشَاهِدُوا حُدُوثَ ذَلِكَ. كَانَ لَدَيْهِ الشُّعُورُ نَفْسُهُ تِجَاهَ الْمَعْرَكَةِ؛ فَلَمْ يَشَأْ تَفْوِيتَ حَدَثٍ سَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهُ لِسَنَوَاتٍ تَالِيَةٍ.

جَالَ بِخَاطِرِ هنري وَهُوَ يَرْكُضُ أَنَّ الْمَعْرَكَةَ الَّتِي شَهِدَهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى إِحْمَاءٍ. عِنْدَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَدُورُ الْآنَ، بَدَأَ يَشُكُّ فِي أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ قِتَالًا مِنْ قَبْلُ. كَادَ الْأَمْرِيكُونُ مُضْحِكًا؛ فَقَدْ أَخَذَ هُوَ وَرِفَاقُهُ الْعَدُوَّ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ، وَتَخَيَّلُوا أَنَّهُمْ سَيَحْسِمُونَ الْمَعْرَكَةَ. ظَنُّوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ سَيُصْبِحُونَ أَبْطَالًا، لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَذْكُرَهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

أَسْرَعَ هنري إِلَى الْأَمَامِ مُتَخَيِّلًا كُلَّ مَشَاهِدِ الْمَعْرَكَةِ. حَاوَلَتْ أَغْصَانُ الْأَشْجَارِ وَالْكُرُومِ رَدْعَهُ وَإِعَاقَةَ طَرِيقِهِ، لَكِنَّهُ تَجَاوَزَهَا كُلَّهَا، وَسُرْعَانَ مَا رَأَى حَوَاجِزَ الدُّخَانِ

الرَّمَادِيَّةَ الْمُرْتَفِعَةَ. فَزِعَ هنري عِنْدَمَا سَمِعَ صَوْتَ الْمَدَافِعِ مِنْ حَوْلِهِ، وَأَخَذَ يُحَدِّقُ النَّظَرَ فِي اتِّجَاهِ الْمَعْرَكَةِ.

وأَخِيرًا، وَاصَلَ هنري طَرِيقَهُ إِلَى الْأَمَامِ، وبَدَتْ أَصْوَاتُ الْمَعْرَكَةِ مِثْلَ صَرِيرِ آلَةٍ مُرَوِّعَةٍ. كَانَ سَمَاعُ تِلْكَ الْأَصْوَاتِ رَائِعًا، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَرِبَ أَكْثَرَ لِيَرَى مَا يَحْدُثُ.

وَصَلَ هنري إِلَى طَرِيقٍ بِهِ حَشْدٌ مِنَ الرِّجَالِ الْمُصَابِينَ يَسِيرُونَ بِبُطْءٍ بَعِيدًا عَنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. كَانُوا يَكِيلُونَ الشَّتَائِمَ، وَيَتَأَوَّهُونَ، وَيَبْكُونَ. كَانَ أَحَدُهُمْ يَحْمِلُ حِذَاءً مَلِيئًا بِالدِّمَاءِ، وَأَخَذَ يَقْفِزُ مِثْلَ تِلْمِيذٍ فِي الْمَدْرَسَةِ وَيَضْحَكُ كَالْمَجْنُونِ، بَيْنَمَا كَانَ آخَرُ يُغَنِّي بِصَوْتٍ عَالٍ مُرْتَعِشٍ. وكَانَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ غَاضِبِينَ، بَيْنَمَا سَاعَدَ بَعْضُهُمْ فِي حَمْلِ ضَابِطٍ كَانَ يَصِيحُ بِالْأَوَامِرِ فِي الرِّجَالِ الْقَرِيبِينَ مِنْهُ.

انْضَمَّ هنري إِلَى هَذَا الْحَشْدِ وَسَارَ مَعَهُمْ. سَارَ رَجُلٌ رَثُّ الثِّيَابِ بِهُدُوءٍ إِلَى جِوَارِ هنري. كَانَ مُغَطًّى بِالْغُبَارِ وَالدِّمَاءِ، وَلَدَيْهِ بُقَعُ بَارُودٍ تُغَطِّي شَعْرَهُ إِلَى حِذَائِهِ، وكَانَ يَسْتَمِعُ إِلَى رَقِيبٍ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وبَعْدَ بُرْهَةٍ اقْتَرَبَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ مِنْ هنري مُحَاوِلًا التَّحَدُّثَ مَعَهُ. رَأَى هنري أَنَّ الرَّجُلَ مُصَابٌ بِجُرْحَيْنِ؛ وَاحِدٌ فِي ذِرَاعِهِ وَالْآخَرُ فِي رَأْسِهِ ومَرْبُوطٌ بِقِطْعَةِ قُمَاشٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالدِّمَاءِ. كَانَ صَوْتُ الرَّجُلِ ذِي الثِّيَابِ الرَّثَّةِ رَقِيقًا، وَبَدَتْ عَيْنَاهُ وَكَأَنَّهُمَا تَتَوَسَّلَانِ شَيْئًا.

سَأَلَ الرَّجُلُ: «كَانَتْ مَعْرَكَةً جَيِّدَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

رَفَعَ هنري — الَّذِي كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي التَّفْكِيرِ — بَصَرَهُ إِلَى الْوَجْهِ الْبَائِسِ الْمُغَطَّى بِالدِّمَاءِ، وَقَالَ: «مَاذَا؟»

سَأَلَ الرَّجُلُ: «كَانَتْ مَعْرَكَةً جَيِّدَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ هنري: «بلى.» وَبَدَأَ يُسْرِعُ فِي السَّيْرِ، لَكِنَّ الرَّجُلَ لَحِقَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: «لَمْ أَرَ رِجَالًا يُقَاتِلُونَ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ، يَا لَهَا مِنْ مَعْرَكَةٍ! كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ فِتْيَانَنَا سَيَتَحَلَّوْنَ بِالْقُوَّةِ مَا إِنْ يَبْدَأُ الْقِتَالُ. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأُمُورَ سَتَئُولُ لِمَا آلَتْ إِلَيْهِ. لَا يُمْكِنُ هَزِيمَةُ فِتْيَانِنَا يَا سَيِّدِي. إِنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَا شَكَّ.»

نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى هنري عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِيُشَجِّعَهُ عَلَى الْحَدِيثِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، فَوَاصَلَ الرَّجُلُ حَدِيثَهُ.

قال: «كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ فَتًى مِنْ جورجيا فِي جَيْشِ الْعَدُوِّ، قَالَ إِنَّهُ سَيَهْرُبُ مَا إِنْ يَبْدَأُ إِطْلَاقُ النِّيرَانِ، فَقُلْتُ إِنَّنَا لَنْ نَفْعَلَ. قُلْتُ رُبَّمَا يَفِرُّ رِجَالُهُ، فَضَحِكَ. حَسَنًا، لَمْ يَفِرَّ أَحَدٌ الْيَوْمَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حَارَبَ الْجَمِيعُ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ جُهْدٍ.»

وارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نَظْرَةُ حُبٍّ لِلْجَيْشِ. سَأَلَ الرَّجُلُ هنري بَعْدَ بُرْهَةٍ: «أَيْنَ أُصِبْتَ يَا فَتى؟»

شَعَرَ هنري بِالذُّعْرِ فَوْرًا عِنْدَ سَمَاعِ السُّؤَالِ.

سَأَلَ هنري: «مَاذَا؟»

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ ثَانِيَةً: «أَيْنَ أُصِبْتَ؟»

رَدَّ هنري: «لِمَاذا؟ ... أَنَا ... أنَا ... إِنَّهُ ... لِمَاذَا؟ أَنَا ...»

اسْتَدَارَ هنري فَجْأَةً، وَأَخَذَ يَرْكُضُ وَسْطَ الْحَشْدِ. اكْتَسَى وَجْهُهُ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ، وَالْتَقَطَتْ أَصَابِعُهُ فِي تَوَتُّرٍ أَحَدَ أَزْرَارِهِ. ظَلَّ مُنَكَّسَ الرَّأْسِ يُحَدِّقُ فِي الزِّرِّ كَأَنَّ بِهِ خَطْبًا مَا.

الفصل الحادي عشر

جيم كونكلن

تَرَاجَعَ هنري حَتَّى مُؤَخِّرَةِ الْحَشْدِ، وَظَلَّ مُتَوَارِيًا عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى اخْتَفَى الْجُنْدِيُّ رَثُّ الثِّيَابِ، ثُمَّ بَدَأَ يَسِيرُ مَعَ الْآخَرِينَ. لَكِنَّهُ كَانَ مُحَاطًا بِالْجَرْحَى. السُّؤَالُ الَّذِي طَرَحَهُ عَلَيْهِ الْجُنْدِيُّ رَثُّ الثِّيَابِ جَعَلَهُ يَشْعُرُ أَنَّ عَارَهُ سَيَكُونُ مَلْحُوظًا لِلْجَمِيعِ. كَانَ هنري يَنْظُرُ أَحْيَانًا إِلَى الرِّجَالِ الْآخَرِينَ بِعَيْنٍ مِلْؤُهَا الْحَسَدُ. كَانَ يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لَدَيْهِ جُرْحٌ هُوَ الْآخَرُ؛ شَارَةٌ حَمْرَاءُ تَدُلُّ عَلَى شَجَاعَتِهِ.

كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ مُصَابٌ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ مُسَاعَدَتَهُ، لَكِنَّهُ أَبْعَدَهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتْرُكُوهُ وَشَأْنَهُ. كَانَ وَجْهُهُ رَمَادِيًّا، وَشَفَتَاهُ مُغْلَقَتَيْنِ بِإِحْكَامٍ. تَحَرَّكَ الرَّجُلُ بِصُعُوبَةٍ وَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِيَ جُرُوحَهُ. بَدَا أَنَّهُ يَبْحَثُ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ عَنْ مَكَانٍ يَتَوَقَّفُ فِيهِ. بَدَا وَكَأَنَّهُ شَخْصٌ يَبْحَثُ عَنْ مَقْبَرَةٍ.

شَيْءٌ مَا فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي لَوَّحَ بِهَا الرَّجُلُ إِلَى الْجُنُودِ الْآخَرِينَ لِيَبْتَعِدُوا عَنْهُ أَدْهَشَ هنري، فَصَاحَ فِي فَزَعٍ، ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ذِرَاعِ الرَّجُلِ، وَعِنْدَمَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ، صَاحَ هنري: «جيم كونكلن!»

ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ جيم ابْتِسَامَةٌ صَغِيرَةٌ، وَقَالَ: «مَرْحَبًا يَا هنري.»

قَالَ هنري: «آهٍ يَا جيم! آهٍ يَا جيم! آهٍ يَا جيم!»

سَأَلَهُ جيم: «أَيْنَ كُنْتَ يَا هنري؟» وَمَدَّ يَدَيْهِ: «كُنْتُ قَلِقًا عَلَيْكَ.»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري أَنْ يَقُولَ شَيْئًا سِوَى: «آهٍ يَا جيم!»

قَالَ جيم: «أَتَعْلَمُ؟ لَقَدْ كُنْتُ هُنَاكَ، يَا لَهُ مِنْ سيركٍ. لَقَدْ أُصِبْتُ، لَقَدْ أُصِبْتُ. الْوَضْعُ سَيِّئٌ لِلْغَايَةِ.»

وَبَيْنَمَا وَاصَلُ الصَّدِيقَانِ سَيْرَهُمَا، بَدَا أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ غَلَبَ جيم فَجْأَةً، فَأَمْسَكَ بِذِرَاعِ هنري وَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ بِصَوْتٍ هَامِسٍ مُرْتَجِفٍ. رَأَى هنري أَنَّ صَدِيقَهُ وَاهِنٌ لِلْغَايَةِ.

قال جيم: «سَأُخْبِرُكَ عَمَّا يُقْلِقُنِي يَا هنري، أَخَافُ أَنْ أَسْقُطَ أَرْضًا، فَإِمَّا يَتْرُكُونَنِي هُنَا، وَإِمَّا تَدْهَسُنِي عَرَبَاتُ الْمِدْفَعِيَّةِ.»

صَاحَ هنري: «سَأَعْتَنِي بِكَ يَا جيم! أُقْسِمُ أَنِّي سَأَفْعَلُ.»

تَشَبَّثَ جيم بِذِرَاعِ هنري.

سَأَلَ جيم: «لَطَالَمَا كُنْتُ صَدِيقًا مُخْلِصًا لَكَ يَا هنري، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَطَالَمَا كُنْتُ شَخْصًا جَيِّدًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَسْتُ أَطْلُبُ الْكَثِيرَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ فَقَطِ اسْحَبْنِي بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ، سَأَرُدُّهَا لَكَ يَا هنري.»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، وَسَارَ جيم مُبْتَعِدًا عَنْهُ.

تَبِعَ هنري صَدِيقَهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعَ صَوْتًا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ كَتِفِهِ، وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَ، إِذَا بِهِ يَجِدُ الْجُنْدِيَّ رَثَّ الثِّيَابِ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «يَنْبَغِي أَنْ تُبْعِدَهُ عَنِ الطَّرِيقِ أَيُّهَا الرَّفِيقُ؛ فَهُنَاكَ عَرَبَةٌ قَادِمَةٌ، وَسَوْفَ تَدْهَسُهُ.»

هُرِعَ هنري إِلَى صَدِيقِهِ، وَحَاوَلَ سَحْبَهُ مِنَ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ جيم أَنْ يَبْتَعِدَ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَإِلَى الْحُقُولِ؟»

بَدَأَ جيم يَرْكُضُ وَسْطَ الْحَشَائِشِ، وَهنري يَرْكُضُ وَرَاءَهُ. صَاحَ هنري عَلَيْهِ كَيْ يَتَوَقَّفَ، لَكِنَّهُ وَاصَلَ الرَّكْضَ. شَعَرَ هنري بِالدَّهْشَةِ لِأَنَّ صَدِيقَهُ لَا يَزَالُ يَمْتَلِكُ كُلَّ هَذِهِ الْقُوَّةِ.

سَأَلَهُ هنري بِصَوْتٍ مُرْتَعِدٍ: «إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ يَا جيم؟ فِيمَ تُفَكِّرُ؟ مَاذَا تَفْعَلُ؟»

اسْتَدَارَ جيم، وَقَالَ: «اتْرُكْنِي وَشَأْنِي، أَلَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟»

سَأَلَهُ هنري فِي ذُهُولٍ: «لِمَاذَا يَا جيم؟ مَا خَطْبُكَ؟»

اسْتَدَارَ جيم، وَرَكَضَ إِلَى الْأَمَامِ، فَتَبِعَهُ هنري وَالْجُنْدِيُّ رَثُّ الثِّيَابِ تَنْتَابُهُمَا مَشَاعِرُ الدَّهْشَةِ وَالْخَوْفِ. بَدَا الْأَمْرُ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ طَقْسٍ دِينِيٍّ، وَأَخِيرًا رَأَيَا جيم يَتَوَقَّفُ فِي مَكَانِهِ. بَدَا وَكَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ بِأَنَاةٍ شَيْئًا جَاءَ لِيَلْتَقِيَهُ.

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الجَمِيعِ.

وَأَخِيرًا، أَخَذَ صَدْرُ جيم يَنْتَفِضُ، وَسَقَطَ أَرْضًا.

اتَّجَهَ هنري بِغَضَبٍ مُفَاجِئٍ نَحْوَ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. لَوَّحَ بِقَبْضَةِ يَدِهِ، وَبَدَا عَلَى وَشْكِ الصُّرَاخِ.

فَوْقَهُ، كَانَ قُرْصُ الشَّمْسِ الْأَحْمَرُ مُلْتَصِقًا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ رُقَاقَةٌ مِنَ البَسْكَوِيتِ.

الفصل الثاني عشر

سُؤَالُ الْجُنْدِيِّ رَثِّ الثِّيَابِ

وَقَفَ الرَّجُلُ رَثُّ الثِّيَابِ يُفَكِّرُ.

وَأَخِيرًا، قَالَ بِصَوْتٍ مَمْزُوجٍ بِالدَّهْشَةِ: «يَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ أَتَعَجَّبُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ بِكُلِّ تِلْكَ الْقُوَّةِ! لَمْ أَرَ مِنْ قَبْلُ رَجُلًا يَجْرِي هَكَذَا بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِضْعَ مَرَّاتٍ! كَانَ أَمْرًا غَرِيبًا!»

أَرَادَ هنري أَنْ يَصْرُخَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصْدِرَ أَيَّ صَوْتٍ. وَقَفَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ وَرَاقَبَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ بَعْدَ بُرْهَةٍ: «انْظُرْ يَا رَفِيقِي، لَقَدْ رَحَلَ صَدِيقُكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مِنَ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِنَفْسِكَ، لَنْ يَكْتَرِثَ أَحَدٌ لِإِزْعَاجِ صَدِيقِكَ بَعْدَ الْآنَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي لَا أَتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ هَذِهِ الْأَيَّامِ.»

نَظَرَ هنري إِلَى الرَّجُلِ بِسُرْعَةٍ، وَرَأَى أَنَّهُ كَانَ يَتَرَنَّحُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَأَنَّ وَجْهَهُ تَغَيَّرَ إِلَى لَوْنٍ أَزْرَقَ غَرِيبٍ.

صَاحَ هنري: «لَسْتَ أَنْتَ أَيْضًا، لَنْ تَـ...»

لَوَّحَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ.

قَالَ الرجل: «لَا، كُلُّ مَا أَحْتَاجُهُ هُوَ حِسَاءُ الْبَازِلَّاءِ، وَفِرَاشٌ وَثِيرٌ.»

بَدَآ يَسِيرَانِ عَائِدَيْنِ إِلَى الطَّرِيقِ. تَحَرَّكَا بِهُدُوءٍ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَأَخِيرًا، قَالَ الرَّجُلُ رَثُّ الثِّيَابِ: «أَتَعْلَمُ يَا رَفِيقِي؟ بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِتَدَهْوُرٍ شَدِيدٍ.»

تَأَوَّهَ هنري وَتَسَاءَلَ هَلْ سَيَشْهَدُ عَرْضًا مُرَوِّعًا آخَرَ، لَكِنَّ صَدِيقَهُ الْجَدِيدَ طَمْأَنَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: «أُوه، لَمْ يَحِنِ الْوَقْتُ بَعْدُ. لَدَيَّ الْكَثِيرُ لِأَفْعَلَهُ. عَلَيْكَ أَنْ تَرَى كَمْ طِفْلٍ لَدَيَّ!»

لَمَحَ هنري ظِلَّ ابْتِسَامَةٍ عَلَى وَجْهِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَمْزَحُ.

سَارَا مَسَافَةً أَطْوَلَ، وَتَحَدَّثَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ، بَعْدَهَا قَالَ بِهُدُوءٍ بَالِغٍ: «لَا أَظُنُّ أَنِّي أَسْتَطِيعُ مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ، وأَنْتَ أَيْضًا تَبْدُو مُرْهَقًا جِدًّا، أُرَاهِنُ أَنَّكَ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّا تَظُنُّ. عَلَيْكَ الِاعْتِنَاءُ بِجُرْحِكَ؛ لَيْسَ مِنَ الْجَيِّدِ أَنْ تَتْرُكَ هَذِهِ الْجُرُوحَ مِنْ دُونِ عِنَايَةٍ. أَيْنَ جُرْحُكَ؟»

كَانَ هنري يَأْمُلُ أَلَّا يُكَرِّرُ الرَّجُلُ هَذَا السُّؤَالَ ثَانِيَةً. أَطْلَقَ صَرْخَةَ غَضَبٍ، وَأَشَاحَ بِيَدِهِ فِي حَنَقٍ.

قَالَ هنري مُحْتَدًّا: «كُفَّ عَنْ إِزْعَاجِي.» الْخِزْيُ الَّذِي كَانَ يَشْعُرُ بِهِ جَرَّاءَ مَا فَعَلَهُ جَعَلَهُ يَصْرُخُ فِي وَجْهِ صَدِيقِهِ الْوَحِيدِ الآنَ.

قَالَ الرَّجُلُ بِصَوْتٍ يَشُوبُهُ الْحُزْنُ: «يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي لَا أُرِيدُ مُضَايَقَةَ أَحَدٍ. يَعْلَمُ اللهُ أَنَّ لَدَيَّ مَا يَكْفِي مِنَ الْقَلَقِ.»

تَحَدَّثَ هنري — الَّذِي كَانَ يُفَكِّرُ وَيَرْمُقُ الرَّجُلَ بِنَظْرَةِ كَرَاهِيَةٍ — بِنَبْرَةٍ حَادَّةٍ.

قَالَ هنري: «إِلَى اللِّقَاءِ.»

نَظَرَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ إِلَيْهِ فِي ذُهُولٍ.

سَأَلَهُ مُتَرَدِّدًا: «لِمَاذَا؟ ... لِمَاذَا يَا صَدِيقِي؟ إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟» بَدَا رَأْسُهُ غَارِقًا فِي الْأَفْكَارِ. «الْآنَ ... الْآنَ ... انْظُرْ ... هُنَا، أَنْتَ ... الْآنَ ... لَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ ... لَنْ يُجْدِيَ هَذَا نَفْعًا، إِلَى أَيْنَ؟ ... إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟»

أَشَارَ هنري قَائِلًا: «إِلَى هُنَاكَ.»

قَالَ الرَّجُلُ مُتَلَعْثِمًا: «حَسَنًا، انْظُرِ الْآنَ ... هُنَا ... الْآنَ.» كَانَ رَأْسُهُ يَتَدَلَّى إِلَى الْأَمَامِ، وَقَالَ مُغَمْغِمًا: «لَنْ يَنْجَحَ ذَلِكَ الْآنَ. أَنَا أَعْرِفُكَ، تَوَدُّ أَنْ تَذْهَبَ وَلَدَيْكَ جُرْحٌ غَائِرٌ. هَذَا لَيْسَ جَيِّدًا، عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَنِي لِأَعْتَنِيَ بِكَ. لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ تَذْهَبَ ... تَسِيرَ ... بِجُرْحٍ بَالِغٍ ... لَيْسَ ... لَيْسَ جَيِّدًا ... لَيْسَ جَيِّدًا.»

تَسَلَّقَ هنري أَحَدَ الأَسْيِجَةِ، وَبَدَأَ يَرْكُضُ بَعِيدًا. سَمِعَ صَوْتَ الرَّجُلِ يُنَادِيهِ، لَكِنَّهُ وَاصَلَ الابْتِعَادَ. وبَعْدَ أَنِ ابْتَعَدَ مَسَافَةً، اسْتَدَارَ فَرَأَى الرَّجُلَ يَهِيمُ وَسْطَ الْحَقْلِ.

تَمَنَّى هنري لَوْ أَنَّهُ أُصِيبَ فِي الْمَعْرَكَةِ. السُّؤَالُ الْبَسِيطُ الَّذِي وَجَّهَهُ الرَّجُلُ إِلَيْهِ كَانَ مِثْلَ الْجُرْحِ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ إِخْفَاءَ سِرِّهِ. سَيَعْلَمُ الْجَمِيعُ أَنَّهُ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ. لَمْ يَسْتَطِعْ حَتَّى أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَسْئِلَةِ الْبَسِيطَةِ.

الفصل الثالث عشر

فُرْصَةٌ ثَانِيَةٌ لِلانْضِمَامِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ

انْتَبَهَ هنري فَجْأَةً إِلَى أَنَّ هَدِيرَ الْمَعْرَكَةِ كَانَ يَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا. مَرَّتْ فَوْقَهُ سُحُبٌ بُنِّيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَاقْتَرَبَ الضَّجِيجُ أَكْثَرَ. وعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى قِمَّةِ أَحَدِ التِّلَالِ، رَأَى أَنَّ الطَّرِيقَ قَدِ امْتَلَأَ بِالْعَرَبَاتِ الَّتِي تَجُرُّهَا الْخُيُولُ، وَبِالرِّجَالِ. كَانَ الْخَوْفُ يُحَرِّكُ الْجَمِيعَ.

شَعَرَ هنري بِالرَّاحَةِ عِنْدَمَا رَأَى هَذَا الْمَشْهَدَ. كَانَ الْجَمِيعُ يَفِرُّونَ. رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ هو سَيِّئًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ عَلَى أَيِّ حَالٍ. جَلَسَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَشَاهَدَ الْجَمِيعَ يَمُرُّونَ مِنْهُ. كَانُوا يَفِرُّونَ مِثْلَ حَيَوَانَاتٍ صَغِيرَةٍ مُنْزَعِجَةٍ، وَوَجَدَ هنري بَعْضَ السَّعَادَةِ فِي مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْمَسِيرَةِ الْهَمَجِيَّةِ.

سُرْعَانَ مَا ظَهَرَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ جُنُودِ الْمُشَاةِ عَلَى الطَّرِيقِ؛ كَانُوا يَتَحَرَّكُونَ بِسُرْعَةٍ وَيَدُورُونَ حَوْلَ كُلِّ مَا يُصَادِفُهُمْ فِي الطَّرِيقِ. كَانَ هَؤُلَاءِ الْجُنُودُ يَتَوَجَّهُونَ نَحْوَ قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ، وَكَانُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُوَاجَهَةِ انْدِفَاعِ الْعَدُوِّ الْمُتَحَمِّسِ. اكْتَسَتْ وُجُوهُهُمْ بِمَلَامِحِ الْجِدِّ، وَلَمَسَ هنري شُعُورَهُمْ بِالْأَهَمِّيَّةِ.

عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ، عَادَ إِلَيْهِ الشُّعُورُ بِالْحُزْنِ؛ شَعَرَ وَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُ صَفًّا مِنَ الْجُنُودِ وَقَعَ الِاخْتِيَارُ عَلَيْهِمْ خُصُوصًا لِيَكُونُوا أَبْطَالًا. لَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَبَدًا. كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبْكِيَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

تَمَنَّى هنري لَوِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُصْبِحَ بَطَلًا، وَلِلَحْظَةٍ كَانَ عَلَى وَشْكِ الْقِيَامِ وَالِانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْمَعْرَكَةِ، لَكِنَّ الصُّعُوبَاتِ الْمُحِيطَةَ بِوَضْعِهِ بَدَأَتْ تَثْنِيهِ عَنْ عَزْمِهِ، وَأَصَابَهُ التَّرَدُّدُ.

لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً، لَكِنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْبَنَادِقِ حَوْلَهُ، وَيُمْكِنُهُ الْتِقَاطُ إِحْدَاهَا. فَكَّرَ أَيْضًا أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ الْعُثُورُ عَلَى كَتِيبَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَطِيعُ الْقِتَالَ مَعَ أَيِّ كَتِيبَةٍ أُخْرَى. بَدَأَ هنري يَتَحَرَّكُ إِلَى الْأَمَامِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا يُقَاوِمُ مَخَاوِفَهُ.

وفِي النِّهَايَةِ تَغَلَّبَتِ اعْتِرَاضَاتُ هنري عَلَى شَجَاعَتِهِ. لَمْ يَكُنْ مُنْزَعِجًا لِلْغَايَةِ مِنْ قَرَارِهِ. فعِنْدَمَا فَكَّرَ فِيهِ رَأَى أَنَّ الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا عَوِيصَةٌ حَقًّا؛ وَالْآنَ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بَدَأَتْ مُشْكِلَاتٌ أُخْرَى تُثِيرُ انْزِعَاجَهُ.

كَانَ يُعَانِي ظَمَأً شَدِيدًا. كَانَ وَجْهُهُ جَافًّا حَتَّى إِنَه شَعَرَ وَكَأَنَّ بَشَرَتَهُ سَتَتَشَقَّقُ. كُلُّ عَظْمَةٍ فِي جَسَدِهِ كَانَتْ تُؤْلِمُهُ، وَقَدَمَاهُ كَانَتَا مُتَقَرِّحَتَيْنِ. آلَمَتْهُ مَعِدَتُهُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَأَصْبَحَ لَا يَسْتَطِيعُ الرُّؤْيَةَ بِوُضُوحٍ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ بَطَلًا أَبَدًا. تَأَوَّهَ مِنْ فَرْطِ الْحُزْنِ وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ بَعِيدًا.

ظَلَّ هنري قَرِيبًا مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. كَانَتْ لَدَيْهِ رَغْبَةٌ كَبِيرَةٌ فِي رُؤْيَةِ الْقِتَالِ وَاسْتِطْلَاعِ الْأَخْبَارِ. كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ لِمَنْ سَيَكُونُ النَّصْرُ.

فَكَّرَ هنري أَنَّهُ فِي حَالَةِ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ، سَيَصُبُّ ذَلِكَ فِي مَصْلَحَتِهِ. لقد ظَنَّ أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الرِّجَالِ الشُّجْعَانِ سَيَلُوذُونَ بِالْفِرَارِ إِذَا مَا دَحَرَهُمُ الْعَدُوُّ، وَحِينَهَا سَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، ولَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّهُ قَدْ لَاذَ بِالْفِرَارِ قَبْلَ ذَلِكَ.

إِذَا خَسِرَ جَيْشُهُ الْحَرْبَ، فَسَيَكُونُ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ الصَّوَابَ بِهَرَبِهِ. سَيُثْبِتُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى اسْتِشْرَافِ مَا سَيَحْدُثُ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ التَّنَبُّؤَ بِالْمُسْتَقْبَلِ. كَانَ لِهَذَا الدَّلِيلِ أَهَمِّيَّةٌ كُبْرَى لَدَى هنري؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْبَلُ فِكْرَةَ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ شَيْئًا مُشِينًا.

أَمَّا إِذَا انْتَصَرَ الْجَيْشُ، فَسَيَقَعُ هنري فِي مَأْزِقٍ. كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ التَّفْكِيرَ فِي أُمُورٍ كَهَذِهِ أَمْرٌ بَغِيضٌ، وَنَعَتَ نَفْسَهُ بِالْوَغْدِ لِمُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ جَالَتْ بِخَاطِرِ هنري فِكْرَةٌ أُخْرَى؛ فصَحِيحٌ أَنَّ هَزِيمَةَ جَيْشِهِ سَتُنْقِذُهُ مِنْ فَعْلَتِهِ، لَكِنَّهُ قَرَّرَ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُجْدِي التَّفْكِيرَ فِي ذَلِكَ الِاحْتِمَالِ. فقد كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ جَيْشَهُ لَنْ يُهْزَمَ أَبَدًا.

فَكَّرَ هنري فِي اخْتِلَاقِ قِصَّةٍ جَيِّدَةٍ يَقُصُّهَا عَلَى مَسَامِعِ الْجُنُودِ الْآخَرِينَ فِي كَتِيبَتِهِ. فَكَّرَ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ، لَكِنَّهَا جَمِيعًا كَانَتْ ضَعِيفَةً لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ تَصْدِيقُهَا.

تَخَيَّلَ مَشْهَدَ أَفْرَادِ الْكَتِيبَةِ كُلِّهِمْ وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ.

سَيَسْأَلُونَ: «أَيْنَ هنري فليمنج؟ لَقَدْ هَرَبَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ يَا إِلَهِي!»

تَخَيَّلَ هنري الْجَمِيعَ يُحَدِّقُونَ فِيهِ بِنَظَرَاتٍ مِلْؤُهَا الْكَرَاهِيَةُ أَيْنَمَا ذَهَبَ فِي الْمُعَسْكَرِ. سَيَضْحَكُ الْجَمِيعُ مِنْهُ بِأُسْلُوبٍ دَنِيءٍ، وَسَيَكُونُ مَحَطَّ سُخْرِيَةِ الْجَمِيعِ.

الفصل الرابع عشر

إِصَابَةُ حَرْبٍ

مَا إِنِ اخْتَفَى الْجُنُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَسِيُرونَ عَلَى الطَّرِيقِ عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى رَأَى هنري كَثِيرِينَ آخَرِينَ قَادِمِينَ مِنَ الْغَابَاتِ وَعَبْرَ الْحُقُولِ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْرُبُونَ إِنْقَاذًا لِحَيَاتِهِمْ. انْدَفَعُوا بِجِوَارِهِ كَقَطِيعٍ مِنَ الْجَامُوسِ الْمَذْعُورِ، وَخَلْفَهُمْ تَمَوَّجَ الدُّخَانُ وَتَجَمَّعَ فَوْقَ قِمَمِ الْأَشْجَارِ بَيْنَمَا اسْتَمَرَّ انْطِلَاقُ الْمَدَافِعِ.

انْتَابَتْ هنري حَالَةٌ مِنَ الذُّعْرِ، وَحَدَّقَ فِي الْمَشْهَدِ أَمَامَهُ فِي ذُهُولٍ؛ لَقَدْ خَسِرَ الْجَيْشُ الْمَعْرَكَةَ. سُرْعَانَ مَا وَجَدَ هنري نَفْسَهُ وَسْطَ الْفَارِّينَ. حَاوَلَ أَنْ يَطْرَحَ بَعْضَ الْأَسْئِلَةِ عَلَى الْقَرِيبِينَ مِنْهُ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ. كَانَ الرِّجَالُ يَفِرُّونَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَأَخِيرًا، أَمْسَكَ هنري بِذِرَاعِ أَحَدِ الرِّجَالِ، وَتَمَايَلَ كِلَاهُمَا وَجْهًا لِوَجْهٍ.

قَالَ هنري مُتَلَعْثِمًا: «لِمَاذَا ...؟ لِمَاذَا ...؟»

صَرَخَ الرَّجُلُ: «دَعْنِي! دَعْنِي!» كَانَ الرَّجُلُ يَلْهَثُ وَيَسْحَبُ نَفسَهُ فِي هِيَاجٍ: «دَعْنِي!»

تَمْتَمَ هنري: «لِمَاذَا ...؟ لِمَاذَا ...؟»

صَاحَ الرَّجُلُ: «حَسَنًا، إِذَنْ!» وَضَرَبَ هنري فِي رَأْسِهِ وَلَاذَ بِالْفِرَارِ.

سَقَطَ هنري أَرْضًا، وَوَجَدَ صُعُوبَةً فِي الْوُقُوفِ ثَانِيَةً. وَعِنْدَمَا وَقَفَ أَخِيرًا، شَعَرَ بِالْوَهَنِ الشَّدِيدِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ ضَوْضَاءُ صَاخِبَةٌ فِي رَأْسِهِ. فِي النِّهَايَةِ نَجَحَ فِي الِانْتِقَالِ إِلَى الْحَشَائِشِ، وَشَعَرَ بِجُرْحٍ فِي أَعْلَى رَأْسِهِ.

رَأَى هنري بَعْضَ الْجُنُودِ وَالضُّبَّاطِ يُحَاوِلُونَ تَجْمِيعَ أَنْفُسِهِمْ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الصُّفُوفِ. كَسَا ضَبَابُ الْمَسَاءِ الْأَزْرَقُ الْحَقْلَ، وَاكْتَسَتِ الْغَابَةُ بِظِلَالٍ قُرْمُزِيَّةٍ مُمْتَدَّةٍ، وَكَانَتْ هُنَاكَ

سَحَابَةٌ وَحِيدَةٌ فِي السَّمَاءِ. تَرَكَ هنري الْمَشْهَدَ وَرَاءَهُ، وَمَا إِنْ فَعَلَ حَتَّى سَمِعَ طَلَقَاتِ الْبَنَادِقِ تُدَوِّي مُجَدَّدًا فَجْأَةً.

الفصل الخامس عشر

غَرِيبٌ يُقَدِّمُ الْعَوْنَ

تَسَارَعَتْ خُطُوَاتُ هنري عِنْدَ حُلُولِ الْغَسَقِ. بَعْدَ فَتْرَةٍ، لَمْ يَعُدْ جُرْحُهُ يُؤْلِمُهُ. فَكَّرَ هنري فِي مَوْطِنِهِ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ، وَأَخِيرًا بَلَغَ الْإِنْهَاكُ مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ، فتَدَلَّى رَأْسُهُ إِلَى الْأَمَامِ، وانْحَنَتْ كَتِفَاهُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقِيلًا، وَأَصْبَحَ يَجُرُّ قَدَمَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ.

فِي النِّهَايَةِ سَمِعَ صَوْتًا مُبْتَهِجًا بِجِوَارِ كَتِفِهِ يَقُولُ: «تَبْدُو بِحَالَةٍ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

لَمْ يَرْفَعْ هنري بَصَرَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: «بَلَى.»

أَمْسَكَ صَاحِبُ الصَّوْتِ الْمُبْتَهِجِ بِذِرَاعِ هنري بِإِحْكَامٍ.

قَالَ الرَّجُلُ ضَاحِكًا: «حَسَنًا، أَنَا ذَاهِبٌ فِي طَرِيقِكَ. الْمَجْمُوعَةُ كُلُّهَا ذَاهِبَةٌ فِي طَرِيقِكَ، وَأَظُنُّ أَنَّ بِاسْتِطَاعَتِنَا تَوْصِيلَكَ.»

أَثْنَاءَ سَيْرِهِمَا، سَأَلَ الرَّجُلُ هنري عَمَّا رَآهُ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا يَعْرِفُهُ عَنْ كَتِيبَةِ هنري.

قَالَ الرَّجُلُ: «إِنَّهُمْ هُنَاكَ فِي قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ، أَعْتَقِدُ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ أَخَذُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الْقِتَالِ الْيَوْمَ. كِدْتُ أَسْتَسْلِمُ بِضْعَ مَرَّاتٍ. كَانَ هُنَاكَ صُرَاخٌ وَإِطْلَاقُ نَارٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. حَلَّ الظَّلَامُ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ أَيْنَ أَنَا، أَوْ فِي أَيِّ جَانِبٍ أَكُونُ. كَيْفَ وَجَدْتَ طَرِيقَكَ إِلَى هُنَا عَلَى أَيِّ حَالٍ؟ فَكَتِيبَتُكَ بَعِيدَةٌ جِدًّا مِنْ هُنَا. أَظُنُّ أَنَّ بِإِمْكَانِي الْعُثُورَ عَلَيْهِمْ.»

أَثْنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ كَتِيبَةِ هنري، بَدَا صَاحِبُ الصَّوْتِ الْمُبْتَهِجِ وَكَأَنَّ لَدَيْهِ مَهَارَةً سِحْرِيَّةً. كَانَ قَادِرًا عَلَى شَقِّ طَرِيقِهِ بِسُهُولَةٍ عَبْرَ الْغَابَاتِ الْمُتَشَابِكَةِ. وَكُلَّمَا مَرُّوا بِأُنَاسٍ آخَرِينَ، أَبْدَى الرَّجُلُ ذَكَاءَ الْمُحَقِّقِينَ وَشَجَاعَةَ الْأَبْطَالِ. كَانَتِ الْمُشْكِلَاتُ تَخْتَفِي أَمَامَهُ،

وَتَتَحَوَّلُ لِأَشْيَاءَ قَدْ تُسَاعِدُهُمَا فِي طَرِيقِهِمَا. كَانَ هنري يَنْتَحِي جَانِبًا عِنْدَمَا كَانَ رَفِيقُهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَ الْعَوْدَةِ لِكِلَيْهِمَا.

بَدَتِ الْغَابَةُ وَكَأَنَّهَا مُكْتَظَّةٌ بِرِجَالٍ يَرْكُضُونَ فِي دَوَائِرَ وَقَدْ ضَلُّوا طَرِيقَهُمْ، لَكِنَّ رَفِيقَ هنري تَجَاوَزَ بِهِ كُلَّ الْعَثَرَاتِ حَتَّى بَدَأَ يَضْحَكُ فِي سَعَادَةٍ وَرِضًى أَخِيرًا.

قال الرَّجُلُ: «هَا قَدْ وَصَلْتَ، أَتَرَى تِلْكَ النَّارَ؟»

أَوْمَأَ هنري بِرَأْسِهِ، وَتَمَلَّكَهُ شُعُورٌ بِالْحَمَاقَةِ.

قَالَ الرَّجُلُ: «هَذِهِ كَتِيبَتُكَ. إِلَى اللِّقَاءِ الْآنَ يَا فَتى. أَتَمَنَّى لَكَ حَظًّا سَعِيدًا.»

أَمْسَكَتْ يَدُ الرَّجُلِ الدَافِئَةُ القَوِيَّةُ بِأَصَابِعِ هنري الرَّقِيقَةِ هُنَيْهَةً، ثُمَّ سَمِعَ هنري صَفِيرًا مُبْهِجًا أَثْنَاءَ ابْتِعَادِ الرَّجُلِ. كَانَ الرَّجُلُ وَدُودًا مَعَهُ، وَبَيْنَمَا رَاقَبَ هنري ابْتِعَادَهُ، أَدْرَكَ فَجْأَةً أَنَّهُ لَمْ يَرَ وَجْهَه قَطُّ.

الفصل السادس عشر

الْعَوْدَةُ إِلَى الْمُعَسْكَرِ

اتَّجَهَ هنري بِبُطْءٍ نَحْوَ النَّارِ يُفَكِّرُ خَائِفًا فِي كَيْفِيَّةِ اسْتِقْبَالِ أَصْدِقَائِهِ لَهُ. كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ سَيَسْخَرُونَ مِنْهُ. فَكَّرَ فِي الِاخْتِبَاءِ فِي الظَّلَامِ، لَكِنَّهُ كَانَ مُنْهَكًا لِلْغَايَةِ وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ الأَلَمُ مَبْلَغَهُ.

اسْتَطَاعَ أَنْ يَرَى رِجَالًا يَنَامُونَ فَوْقَ الْأَرْضِ بِجِوَارِ النَّارِ، وَفَجْأَةً اقْتَرَبَ مِنْهُ شَخْصٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً.

صَاحَ الرَّجُلُ: «تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ!»

ارْتَبَكَ هنري لَحْظَةً، ثُمَّ اعْتَقَدَ أَنَّهُ تَعَرَّفَ عَلَى صَاحِبِ الصَّوْتِ.

قَالَ: «مَرْحَبًا، ويلسون! هَلْ ... هَلْ هَذَا أَنْتَ؟»

انْخَفَضَتِ الْبُنْدُقِيَّةُ، وَتَقَدَّمَ ويلسون بِبُطْءٍ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِ هنري.

سَأَلَهُ ويلسون: «أَهَذَا أَنْتَ يَا هنري؟ سَعِيدٌ بِرُؤْيَتِكَ يا فَتى، كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ الْأَمَلَ فِي عَوْدَتِكَ.»

لَمْ يَكُنْ هنري يَقْوَى عَلَى الْوُقُوفِ، وَحَاوَلَ سَرْدَ قِصَّتِهِ سَرِيعًا.

قَالَ: «نَعَمْ، نَعَمْ، لَقَدْ مَرَرْتُ بِوَقْتٍ عَصِيبٍ. مَرَرْتُ بِكُلِّ الْأَمَاكِنِ. انْفَصَلْتُ عَنِ الْكَتِيبَةِ، وَأُصِبْتُ هُنَا فِي رَأْسِي؛ لَقَدْ خَدَشَتْنِي الطَّلْقَةُ. لَمْ أَشْهَدْ قِتَالًا كَهَذَا قَطُّ، كَانَ وَضْعًا عَصِيبًا. لَا أَعْلَمُ كَيْفَ انْفَصَلْتُ عَنِ الْكَتِيبَةِ.»

تَحَرَّكَ ويلسون مُسْرِعًا إِلَى الْأَمَامِ، وَقَالَ: «مَاذَا، أُصِبْتَ؟ لِمَاذَا لَمْ تَقُلْ هَذَا عَلَى الْفَوْرِ أَيُّهَا الْفَتَى الْمِسْكِينُ؟»

بَعْدَهَا خَرَجَ عَرِيفٌ مِنْ وَسْطِ الظَّلَامِ، وَقَالَ: «هنري! أَأَنْتَ هُنَا؟ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قَدْ رَحَلْتَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ. يَا إِلَهِي! إِنَّهُمْ يُعَاوِدُونَ الظُّهُورَ كُلَّ بِضْعِ دَقَائِقَ. ظَنَنَّا أَنَّنَا فَقَدْنَا اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ رَجُلًا، لَكِنْ هَا هُمْ رِجَالُنَا يَعُودُونَ. بِهَذَا الْمُعَدَّلِ سَيَعُودُ الْجَمِيعُ بِحُلُولِ الصَّبَاحِ. أَيْنَ كُنْتَ؟»

بَدَأَ هنري فِي الْكَلَامِ: «لَقَدِ انْفَصَلْتُ ...»

قَاطَعَهُ ويلسون: «نَعَمْ، وَقَدْ أُصِيبَ فِي رَأْسِهِ، يَجِبُ أَنْ نَعْتَنِيَ بِهِ فِي الْحَالِ.»

أَخَذَ ويلسون وَالْعَرِيفُ هنري إِلَى أَحَدِ الْأَغْطِيَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ، وَبَدَأَ الْجُنُودُ الْآخَرُونَ يَمُدُّونَ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ مَا إِنْ رَأَوْهُ. رَبَطَ الْعَرِيفُ الْجُرْحَ فِي رَأْسِ هنري.

بَيْنَمَا كَانَ هنري يَسْتَرِيحُ، نَظَرَ إِلَى الرِّجَالِ الْآخَرِينَ حَوْلَ النَّارِ. كَانَ بَعْضُهُمْ نَائِمِينَ يَحْمِلُونَ بَنَادِقَهُمْ وَسُيُوفَهُمْ، وكَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مُغَطَّاةً بِالطِّينِ وَالْأَوْسَاخِ، وثِيَابُهُمْ مُمَزَّقَةً. بَدَا الْجَمِيعُ مُتْعَبِينَ لِلْغَايَةِ.

جَلَسَ هنري حَزِينًا حَتَّى عَادَ ويلسون يَحْمِلُ قِرْبَتَيْنِ.

قَالَ ويلسون: «حَسَنًا يَا هنري، سَتَكُونُ بِخَيْرٍ بَعْدَ قَلِيلٍ.»

ذَكَّى ويلسون النَّارَ وَحَرَّكَ الْعِصِيَّ فِيهَا، ثُمَّ سَقَى هنري مِنَ القِرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى قَهْوَةٍ بَارِدَةٍ. شَرِبَ هنري كَثِيرًا، وَلَطَّفَتِ الْقَهْوَةُ حَلْقَهُ. وبَعْدَمَا انْتَهَى، تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةَ سَعَادَةٍ وَرَاحَةٍ. بَعْدَهَا رَبَطَ ويلسون رَأْسَ هنري بِمِنْدِيلٍ كَبِيرٍ.

قَالَ ويلسون وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مَا فَعَلَ: «هَا أَنْتَ ذَا تَبْدُو مِثْلَ الشَّيْطَانِ، لَكِنْ أُرَاهِنُ أَنَّكَ الْآنَ أَفْضَلُ. أَنْتَ قَوِيٌّ يَا هنري؛ حِينَمَا كُنَّا نُنَظِّفُ جُرْحَكَ لَمْ تَصْرُخْ أَوْ تَتَفَوَّهْ بِشَيْءٍ، مَعَ أَنَّ إِصَابَاتِ الرَّأْسِ تَكُونُ خَطِيرَةً. اسْتَلْقِ الْآنَ وَاحْصُلْ عَلَى بَعْضِ الرَّاحَةِ.»

اسْتَلْقَى هنري فِي حَذَرٍ، وَتَمَدَّدَ وَهُوَ يُطْلِقُ هَمْهَمَاتِ ارْتِيَاحٍ. بَدَتِ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا أَرِيكَةٌ مُرِيحَةٌ.

لَكِنَّهُ قَامَ فَجْأَةً وَقَالَ: «انْتَظِرْ لَحْظَةً، أَيْنَ سَتَنَامُ؟»

لَوَّحَ إِلَيْهِ صَدِيقُهُ.

قَالَ: «هُنَاكَ بِالْقُرْبِ مِنْكَ.»

– «عَلَى أَيِّ شَيْءٍ سَتَنَامُ؟ فَغِطَاؤُكَ مَعِي.»

دَمْدَمَ ويلسون: «اهْدَأْ وَاخْلُدْ إِلَى النَّوْمِ. لَا تَكُنْ أَحْمَقَ.»

عِنْدَئِذٍ صَمَتَ هنري. تَسَلَّلَ شُعُورٌ بِالنُّعَاسِ فِي جَسَدِهِ كُلِّهِ. وَتَحْتَ الْغِطَاءِ الْمُرِيحِ الدَّافِئِ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى ذِرَاعِهِ وَأُغْمِضَتْ عَيْنَاهُ سَرِيعًا. وعِنْدَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ إِطْلَاقِ النَّارِ مِنْ بَعِيدٍ، تَسَاءَلَ: هَلْ يَنَامُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ؟ أَطْلَقَ تَنْهِيدَةً طَوِيلَةً، وَانْكَمَشَ دَاخِلَ الْغِطَاءِ، وَسُرْعَانَ مَا رَاحَ فِي النَّوْمِ مِثْلَ أَصْدِقَائِهِ.

الفصل السابع عشر

شِجَارٌ دَاخِلَ الْمُعَسْكَرِ

عِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ هنري مِنْ نَوْمِهِ، شَعَرَ وَكَأَنَّهُ ظَلَّ نَائِمًا أَلْفَ سَنَةٍ. ارْتَجَفَ وَجْهُهُ عِنْدَمَا سَقَطَتْ عَلَيْهِ قَطْرَةُ نَدًى بَارِدَةٌ، وَحَدَّقَ بُرْهَةً فِي أَوْرَاقِ الشَّجَرِ الْمُتَطَايِرَةِ فَوْقَهُ. وَمِنْ بَعِيدٍ اسْتَطَاعَ سَمَاعَ أَصْوَاتِ الْقِتَالِ.

كَانَ مُحَاطًا بِمَجْمُوعَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ النَّائِمِينَ فِي أَوْضَاعٍ غَرِيبَةٍ بِلَا حِرَاكٍ، يَعْلُو الشُّحُوبُ وُجُوهَهُمْ. لِلَحْظَةٍ ظَنَّ هنري أَنَّهُمْ جَمِيعًا مَوْتَى. بَعْدَهَا رَأَى ويلسون يَتَدَفَّأُ بِنَارٍ صَغِيرَةٍ، وَرَأَى بِضْعَةَ رِجَالٍ يَتَحَرَّكُونَ وَسْطَ الضَّبَابِ، وَسَمِعَ صَوْتَ شَخْصٍ يَقْطَعُ الْأَخْشَابَ.

دَقَّتْ طُبُولُ الْحَرْبِ فَجْأَةً، وَسُمِعَ مِنْ بَعِيدٍ صَوْتُ بُوقٍ خَافِتٌ. بَدَأَ الْجُنُودُ حَوْلَ هنري فِي الاسْتِيقَاظِ، وَرَأَى ويلسون أَنَّ هنري كَانَ مُسْتَيْقِظًا، فَسَأَلَهُ: «كَيْفَ حَالُكَ هَذَا الصَّبَاحَ يَا هنري؟»

تَثَاءَبَ هنري، كَانَ يَشْعُرُ بِثِقْلٍ فِي رَأْسِهِ، وَمَعِدَتُهُ تُؤْلِمُهُ.

قَالَ: «أَنَا مُتْعَبٌ كَثِيرًا.»

ثَبَّتَ ويلسون الْعِصَابَةَ عَلَى رَأْسِ هنري، ثُمَّ أَعَدَّ بَعْضَ الطَّعَامِ لِكِلَيْهِمَا. تَذَكَّرَ هنري كَيْفَ كَانَ صَدِيقُهُ يَتَصَرَّفُ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلِفٍ لِلْغَايَةِ قَبْلَ مَعْرَكَتِهِمُ الْكُبْرَى. لَمْ يَعُدْ ويلسون ذَلِكَ الْجُنْدِيَّ الشَّابَّ عَالِيَ الصَّوْتِ، بل أَصْبَحَ الْآنَ هَادِئًا وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَعُدْ يَغْضَبُ مِنَ التَّعْلِيقَاتِ التَّافِهَةِ الَّتِي يَسْمَعُهَا مِنَ الْآخَرِينَ. تَسَاءَلَ هنري مَتَى حَلَّ هَذَا التَّغْيِيرُ بِصَدِيقِهِ.

وَضَعَ ويلسون فِنْجَانَ الْقَهْوَةِ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَقَالَ: «كَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى فُرْصَتِنَا فِي الْفَوْزِ يَا هنري؟ هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنَهْزِمُهُمْ؟»

فَكَّرَ هنري قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا عُدْنَا بِالزَّمَنِ إِلَى أَوَّلِ أَمْسِ، كُنْتَ سَتَقُولُ إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ بِمُفْرَدِكَ.»

بَدَا ويلسون مُنْدَهِشًا.

سَأَلَ ويلسون: «هَلْ كُنْتُ سَأَقُولُ هَذَا حَقًّا؟ حَسَنًا، رُبَّمَا تَكُونُ مُحِقًّا، أَعْتَقِدُ أَنَّنِي كُنْتُ سَاذَجًا كَبِيرًا فِي السَّابِقِ.»

حَاوَلَ هنري أَنْ يَعْتَذِرَ لِأَنَّهُ أَحْرَجَ صَدِيقَهُ، لَكِنَّ ويلسون لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ اعْتِذَارًا. بَعْدَ فَتْرَةٍ قَالَ ويلسون إِنَّ الْعَدُوَّ الْآنَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ فِيهِ تَمَامًا.

قَالَ هنري: «لَا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ هَذَا. بَدَا لِي مِنْ مَكَانِي أَمْسِ أَنَّنَا تَلَقَّيْنَا مِنْهُمْ ضَرْبَةً قَاصِمَةً.»

سَأَلَ ويلسون: «أَتَظُنُّ ذَلِكَ؟ أَظُنُّ أَنَّنَا عَامَلْنَاهُمْ بِمُنْتَهَى الْقَسْوَةِ أَمْسِ.»

قَالَ هنري: «عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَنْتَ لَمْ تَشْهَدْ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرَكَةِ.»

فِي كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهُمَا كَانَ الرِّجَالُ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ النِّيرَانِ الصَّغِيرَةِ الْأُخْرَى. وَفَجْأَةً تَصَاعَدَتْ أَصْوَاتٌ حَادَّةٌ. كَانَ هُنَاكَ جُنْدِيَّانِ يَضْحَكَانِ مِنْ رَجُلٍ ضَخْمِ الْجُثَّةِ مُلْتَحٍ حَتَّى ثَارَتْ ثَائِرَتُهُ، وَبَدَا أَنَّ شِجَارًا سَيَقَعُ.

وَقَفَ ويلسون وَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ.

قَالَ: «مَا جَدْوَى ذَلِكَ يا رِجَالُ؟ سَنُوَاجِهُ الْعَدُوَّ بَعْدَ أَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ، فَلِمَاذَا يُقَاتِلُ بَعْضُنَا بَعْضًا؟»

ذَكَّر أَحَدُ الْجُنُودِ ويلسون بِالشِّجَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُنْدِيٍّ آخَرَ مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ وَأَنَّهُ خَسِرَ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «أَنْتَ لَا تُحِبُّ الشِّجَارَ مُنْذُ أَنْ خَسِرْتَ تِلْكَ الْمَرَّةَ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ.»

أَخِيرًا، هَدَأَ الرِّجَالُ، وَعَادَ ويلسون إِلَى مَكَانِهِ، وَسُرْعَانَ مَا عَادَ الْجُنُودُ يُمَازِحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَأَنَّهُمْ أَصْدِقَاءُ قُدَامَى.

قَالَ ويلسون: «أَكْرَهُ رُؤْيَةَ الْجُنُودِ يَتَشَاجَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.»

ضَحِكَ هنري، وَقَالَ: «لَقَدْ تَغَيَّرْتَ كَثِيرًا يَا ويلسون. إِنَّنِي أَتَذَكَّرُكَ عِنْدَمَا كُنْتَ مُسْتَعِدًّا لِلشِّجَارِ حَتَّى مِنْ دُونِ تَفْكِيرٍ.»

قَالَ ويلسون: «أَظُنُّ أَنِّي كُنْتُ كَذَلِكَ.»

بَعْدَ دَقِيقَةٍ قَالَ هنري: «أَعْتَذِرُ لَوْ سَبَّبْتُ لَكَ حَرَجًا.»

قَالَ ويلسون: «لَا تَشْغَلْ بَالَكَ يَا هنري.» ثُمَّ فَكَّرَ قَلِيلًا وَقَالَ: «ظَنَنَّا أَنَّ الْكَتِيبَةَ فَقَدَتْ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ رِجَالِهَا أَمْسِ. ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا قُتِلُوا، لَكِنَّهُمْ ظَلُّوا يَعُودُونَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ حَتَّى بَدَا أَنَّنَا لَمْ نَفْقِدْ سِوَى قَلِيلِينَ. كَانُوا مُنْتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُقَاتِلُونَ مَعَ الْكَتَائِبِ الْأُخْرَى تَمَامًا مِثْلَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ.»

سَأَلَ هنري: «حَقًّا؟!»

الفصل الثامن عشر

الْخِطَابُ

كَانَ الْجُنُودُ يَقِفُونَ فِي وَضْعِ انْتِبَاهٍ عَلَى جَانِبِ أَحَدِ الطُّرُقِ يَنْتَظِرُونَ الْأَمْرَ بِالتَّقَدُّمِ، وَفَجْأَةً تَذَكَّرَ هنري الطَّرْدَ الصَّغِيرَ الْمَلْفُوفَ دَاخِلَ مَظْرُوفٍ أَصْفَرَ بَاهِتٍ الَّذِي أَعْطَاهُ لَهُ ويلسون مِنْ قَبْلُ.

نَادَى هنري عَلَى صَدِيقِهِ: «ويلسون!»

– «مَاذَا؟»

كَانَ ويلسون يُحَدِّقُ فِي الطَّرِيقِ، وَلِسَبَبٍ غَرِيبٍ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نَظْرَةٌ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ جَعَلَتْهُ يَبْدُو خَائِفًا لِلْغَايَةِ. شَعَرَ هنري أَنَّ عَلَيْهِ تَغْيِيرَ الْمَوْضُوعِ.

قَالَ هنري: «لَا شَيْءَ.»

قَرَّرَ هنري أَلَّا يُذَكِّرَهُ بِهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ فِيهِ ويلسون الْمَظْرُوفَ عِنْدَمَا كَانَ خَائِفًا وَعَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ سَيَلْقَى حَتْفَهُ. تَذْكِيرُهُ بِلَحْظَةِ الْخَوْفِ هَذِهِ سَيَكُونُ فِعْلًا وَضِيعًا.

اعْتَادَ هنري الْخَوْفَ مِنْ ويلسون لِأَنَّهُ سَرِيعُ الْغَضَبِ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ خَطَرَتْ عَلَى بَالِ هنري خُطَّةٌ جَدِيدَةٌ؛ إِذَا سَأَلَهُ ويلسون عَمَّا حَدَثَ فِعْلًا أَمْسِ — إِذَا اكْتَشَفَ أَنَّ هنري قَدْ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ — فَسَوْفَ يُخْرِجُ هنري الْمَظْرُوفَ الصَّغِيرَ وَيُذَكِّرُهُ كَمْ كَانَ مَذْعُورًا. هَذَا الْخِطَابُ سِلَاحٌ فِي يَدِ هنري يُمْكِنُهُ اسْتِخْدَامُهُ لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْآخَرِينَ.

فِي لَحْظَةِ ضَعْفٍ نَادِرَةٍ، تَحَدَّثَ ويلسون عَنِ الْمَوْتِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ، وَأَعْطَاهُ الْمَظْرُوفَ الَّذِي يَحْتَوِي بِالتَّأْكِيدِ عَلَى تَذْكَارٍ لِأَقَارِبِهِ. شَعَرَ هنري الْآنَ أَنَّهُ أَفْضَلُ حَالًا مِنْ صَدِيقِهِ، بَلْ إِنَّهُ شَعَرَ بِالْأَسَى عَلَيْهِ.

اسْتَعَادَ هنري اعْتِزَازَهُ بِنَفْسِهِ. صَحِيحٌ أَنَّهُ ارْتَكَبَ أَخْطَاءً، لَكِنْ لَنْ يَعْلَمَ عَنْهَا أَحَدٌ شَيْئًا. إِنَّهُ لَا يَزَالُ رَجُلًا فِي أَعْيُنِ الْآخَرِينَ. لَمْ يُفَكِّرْ هنري فِي الْمَعَارِكِ الْوَشِيكَةِ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ لِلتَّفْكِيرِ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَهَا. لَقَدْ تَعَلَّمَ أَمْسِ أَنَّهُ لَنْ يُحَاسَبَ لَوْ تَخَلَّى عَنْ أَدَاءِ وَاجِبِهِ.

إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ، كَانَ هنري يَشْعُرُ بِالثِّقَةِ؛ إِنَّهُ الْآنَ أَكْثَرُ إِيمَانًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ خِبْرَةً مِنْ ذِي قَبْلُ. لَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْمَخَاطِرِ وَرَأَى أَسْوَأَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى، وَالْآنَ يَظُنُّ أَنَّ مَا حَدَثَ لَمْ يَكُنْ بِهَذَا السُّوءِ.

فَكَّرَ هنري كَيْفَ يَقْتُلُونَهُ فِي حِينِ أَنَّهُ كَانَ وَاضِحًا أَنَّهُمُ اخْتَارُوهُ لِعِظَمِ شَأْنِهِ؟ وَإِلَّا، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ النَّجَاةَ مِنْ كُلِّ مَا تَعَرَّضَ لَهُ؟

تَذَكَّرَ هنري كَيْفَ لَاذَ آخَرُونَ بِالْفِرَارِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ. وَعِنْدَمَا فَكَّرَ فِي وُجُوهِهِمُ الَّتِي كَانَ يَمْلَؤُهَا الذُّعْرُ، شَعَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُمْ، لَقَدْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَفَرُّوا بِسُرْعَةٍ بَالِغَةٍ أَمَامَ أَعْيُنِ الْجَمِيعِ، بَيْنَمَا فَرَّ هُوَ بِكِبْرِيَاءَ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ.

سَعَلَ ويلسون بِصَوْتٍ عَالٍ، فَأَفَاقَ هنري مِنْ أَحْلَامِ يَقَظَتِهِ.

قَالَ ويلسون: «هنري!»

رَدَّ هنري: «مَاذَا هُنَاكَ؟»

سَعَلَ ويلسون مَرَّةً أُخْرَى، وَظَلَّ يَتَحَرَّكُ هُنَا وَهُنَاكَ كَأَنَّ شَيْئًا مَا يُؤَرِّقُهُ.

وَأَخِيرًا، قَالَ وَوَجْهُهُ مَكْسُوٌّ بِحُمْرَةِ الْخَجَلِ: «يُمْكِنُكَ أَنْ تُعِيدَ لِيَ الْخِطَابَ.»

قَالَ هنري بَعْدَ لَحَظَاتٍ: «حَسَنًا يَا ويلسون.»

فَتَحَ هنري سُتْرَتَهُ، وَأَخْرَجَ الْخِطَابَ مِنْ جَيْبِهِ الدَّاخِلِيِّ، وَأَعْطَاهُ لويلسون الَّذِي كَانَ خَجِلًا، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ النَّظَرَ إِلَى هنري.

كَانَ هنري يَتَوَانَى فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ يَقُولُهُ بِشَأْنِ الْخِطَابِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يَقُولُ، وَلِهَذَا قَرَّرَ أَنْ يَكُونَ دَمِثًا مَعَ صَدِيقِهِ وَأَلَّا يَسْخَرَ مِنْهُ.

بَعْدَ ذَلِكَ فَكَّرَ هنري مَرَّةً أُخْرَى فِي الْمَعَارِكِ الَّتِي شَهِدَهَا حَتَّى الْآنَ. كَانَ مُوقِنًا أَنَّ بِإِمْكَانِهِ الْآنَ الْعَوْدَةَ إِلَى دِيَارِهِ وَإِشْعَالَ حَمَاسِ الْآخَرِينَ بِحِكَايَاتِهِ عَنِ الْحَرْبِ. تَخَيَّلَ هنري نَفْسَهُ فِي غُرْفَةٍ يَرْوِي الْقِصَصَ عَلَى الْمُسْتَمِعِينَ، وَرَأَى جُمْهُورَهُ وَهُمْ يَتَخَيَّلُونَهُ بَطَلًا فِي كُلِّ اللَّحَظَاتِ الْمُلْتَهِبَةِ.